عروسة النيل

الفصل الثامن

نزل حيرام الى دار المنزل فوجد كبار الخدم جالسين يصطلون ويتسامرون وبينهم رستم المجوسي و بعض اتباع هاشم وكان كاتب اوريون يحدثهم بما اتفق لسيده من الوقائع حين كان في القسطنطينية وما صادفهُ من الحظوة في عيون جلّة القوم فيها والباقون يصغون الى حديثهِ ويتوقون الى استماع المزيد

ولما خلت باولين ان الجوّ خلا لها انسلّت في الدار واومأت الى حيرام فتبعها وسارا الى غرفتها فعمدت الى صندوق ففتحتهُ واخرجت عقدًا من الجوهر في وسطهِ زمردة كالجوزة حجمًا وكالشمس لمعانًا فامرت حيرام ان يقتلعها من مكانها فعالجها بمديتهِ حتى نزعها واخذ يقلبها في يديهِ وباولين تعيد على مسمعهِ ما امرتهُ بهِ ثم اشارت اليهِ بالانصراف واقفلت الباب واخذت تستعدّ للرقاد ولم يكن الاَّ كلا حول ولاحتى سمعت قرعًا خفيفًا فهبت مذعورة وقالت من بالباب — حيرام

فاسرعت وفتحت الباب وسألتهُ عن سبب عودتهِ فاخبرها ان الباب الصغير الذي جاء بهِ والذي يؤدّي الى الدار موصد وانهُ لا يستطيع الخروج اذ هو لا يعرف مخارج البيت ومداخلهُ فحارت باولين في امرها ثم القت قناعًا على رأسها وقالت

— اتبعني على مهل فاذا وجدنا المطبخ فارغًا استطرقنا منهُ الى القاعة وقد نستطيع الخروج من الباب الكبير لان بعض الخدم يبيتون في المنزل ولعلهم لا يزالون في الدار فاذا بلغناهُ صرتَ على هدًى واحذر الكلب الذي امام دار التحف فهو عقور ومتى اومأتُ اليك بيدي فقف مكانك . فمشيا حذرين الى المطبخ فالقاعة حتى بلغا دار التحف فوجد بابها مفتوحًا فتواريا ووقفت باولين تسترق السمع وقلبها يخفق وجلاً وذهولاً فابصرت رجلاً خارجًا من دار التحف فتحققتهُ واذا بهِ اوريون يتبعهُ كلبهُ الذي اشارت اليهِ فمجم هذا عليهما فمدّت يدها اليهِ ودعتهُ باسمهِ بصوت خافت فكفَّ عن النباح واقبل اليها واطرق راسهُ ولم يرَ اوريون الاثنين فاقفل الباب ومضى لسبيلهِ وظلت باولين كأنها تفكر في وسيلة للخلاص وسادت السكينة على البيت وكاد القمر يغيب ثم سمعت جلبة وهرير كلب عقبهُ استغاثة امرأة في اشدّ الآلام فذعرت لهذا الصوت ثم رأت اوريون يجري والكلب وراءهُ وهما يعدوان حتى وصلا الى حديقة امام

المنزل فغابا فيها عن عينها فالتفتت الى حيرام وقالت لهُ لقد حانت الفرصة فاتبعني واندفعت تجري امامهُ ولكنها لم تسر بضع خطوات حتى عثرت رجلها بشيء فارتعدت فرائصها وتأملتهُ فاذا امرأة منطرحة على الارض لاحراك بها فهمَّت بالفرار لكنَّ رقة قلبها تغلبت على جبنها فوقفت وامرت حيرام بالخروج واومأت الى الباب الكبير ثم جثت على ركبتيها امام الجثة وحققت النظر فيها فالفتها ماندافي الفارسية وقد تخضبت ثيابها بدمها فمزقت قميصها واذا في صدرها جراح دامية فارتاعت لهول ما رأت وعجبت لاوريون كيف يقدم على مثل هذه الفعلة الشنعاء وقد كانت بالامس تنعتهُ بخير النعوت وتحسبهُ مثالاً للشهامة والمروَّة ثم هو اليوم يرتكب جرمًا كهذا ولا يلبث ان يترك المسكينة وشأنها وقد باتت فريستهُ مرتين. فاخذت تتبصر في وسيلة لانقاذها اذ آنست فيها رمقًا من الحياة ولم يشأ حيرام ان يتخلَّى عن سيدتهِ في ذلك الموقف الحرج فخلع حذاءهُ وحمل المجروحة واسندها الى عمود في القاعة ووقف ينتظر امر سيدتهِ في شأنها لكنَّ باولين الحَّت عليهِ بالذهاب خشية ان يراهُ احد من اهل القصر فصدع بامرها واسرع الى الدار وحينئذٍ صاحت باولين باعلى صوتها تدعو الخدم الى مساعدتها فرددت جوانب القصر صوتها وهرع الكتَّاب والحشم وفي طليعتهم اوريون وقد تدثَّر بدثار الليل كأنهُ نهض من الرقاد فجأةً فلما وصل اليها سألها عما جرى فلم تجبهُ فاعادت امهُ السؤال فحارت باولين في ما تقول لكنها شدَّدت عزمها وقالت

— مثلتُ الليلة بالارق وبينما كنت اتقلب على فراشي سمعت نباح كلب وصراخ مستغيث فاسرعت الى هذا المكان ورأيت ما ترون . فقالت تفورس

— لا مشاحة في انكِ غريبة الاطوار فهل سُمع في الدهر ان الفتيات يتركن غرف النوم ويخرجن الى مواقع القتال. وقال اوريون ولو كان معكِ شيء من السلاح يا ابنة الابطال .... فقاطعتهُ باولين وقالت

— لقد خليت السلاح للابطال والقتلة ثم حوَّلت اليهِ نظرة احدّ من السهم فندم على خطابهِ وحاول صرف الحديث فقال على انكِ مخطئة في زعمكِ فليست هذه الجراح في صدر الفتاة وكتفها طعنات سلاح ولكنها اثر براثن الكلب ولا ادري ما الذي جاء بماندافي الى دار التحف حتى جرى ما جرى فقالت امهُ

— ولكن حذاءه من هذا الذي اراهُ هنا. فمالت جبين اوريون صفرة الوجل وحسب الف حساب واخذ يضرب اخماسًا لاسداس فانهُ لم يدخل الى دار التحف حتى تيقن ان الباب المؤدي الى القاعة موصد وان المكان خالٍ من الانس فقلق وخشي ان يكون قد رآهُ احد

لكنهُ عزم على البحث فالتقط الحذاء وسأل الخدم عن صاحبهِ فلم يعرفوهُ فقال

— لكنَّ هذا الحذاء مصنوع عندنا وعليهِ سمة معملنا نخذهُ يا سبك وتحقق صاحبهُ وغدًا نرى ما يكون من امرهِ ثم التفت الى باولين وقال

— لقد كنتِ اول الواصلين الى هذا المكان بحسب قولكِ فهل ابصرتِ فيهِ رجلاً فاجابتهُ والغيظ يكاد يخنقها

— نعم

— وكيف صار

— رأيتهُ يعدو كالجبان في عرض القاعة ثم خرج الى الحديقة التي امامها حتى غاب في غرف النوم

فحرَّق اوربون اسنانهُ وغلت البغضاء في صدرهِ وخشي ان تكون باولين واقفة على دخيلة امرهِ في تلك الليلة فتفضحهُ وتفشي سرهُ وتمنى لو تخسف الارض بها فلا تبرح بما في صدرها. فقالت امهُ لعلَّ الفاعل اراد اباك يا اوربون قصد الفتك بهِ فاسرع يا سبك الى غرفة مولاك وقم على حراستهِ بما نعهدهُ فيك من الامانة وانت يابني تحقق اللص من آثارهِ ولا تخلهِ يفلت من يديك. فالتفت باولين الى البستاني وطلبت اليهِ ان يقيس الحذاء على الآثار التي في الحديقة فاعترضها اوربون قائلاً هذا شغلي انظر فيهِ بنفسي قال هذا وحمل الحذاء وخرج الى الحديقة فاستاءت باولين لتداخلهِ وخشيت ان يضيف الى ذنوبهِ في تلك الليلة الكذب كأن يقول ان الآثار تطابق الحذاء حجمًا وشكلاً فلما عاد قال لا استطيع الجزم في الامر فالحذاء اكبر من اثار الاقدام هناك

وكانوا قد ارسلوا من يأتي بالطبيب فلما جاء انفردت نفورس بابنها وسألتهُ عن سبب صفرتهِ واضطرابهِ وهي تحسبهُ مريضًا فقال لها لقد احزنني منظر هذه الفارسية

وفيما هم كذلك اقبل بعض الاتباع يحملون رستمًا شيخ قافلة هاشم التاجر العربي فوضعوهُ في القاعة لا حراك بهِ وذلك انهُ كان مع اتباع المقوقس كما تقدم فلما دار الحديث على المذاهب واختلافها ابدى الزدراء واستخفافًا بمذهب اليعاقبة فتناول احدهم هراوة وضربهُ على رأسهِ فالقاهُ جريحًا فكشف الطبيب عن الجرح ثم وقف وهو يتميز غيظًا وقال هذه ضربة مصري بحت فانها في مؤخر الرأس فتفرقوا عني ايها الاتباع وليبقَ هنا اصحاب الشأن فقط وهاتوا لي محملين وانت ايتها السيدة نفورس مريهم ان يعدُّوا غرفتين للجريحين فان هذا الفارسي في خطر

— سآمرهم باعداد الغرفتين المجاورتين للقاعة

— كلاَّ فاني اريد غرفتين تشرفان على النيل فالجريحان في حاجة الى الهواء الطيب النقي

— لم يبقَ اذًا سوى غرف الضيوف حيث تقيم باولين ولو كان الجريحان من اهل البيت لاذنت لهما في البقاء فيها ورياش هذه الغرف نظيف ثمين وقد اعددناها لكبار الضيوف

فقال الطبيب — لا اكبر الآن من هذين الجريحين فانها اقرب الى الله منَّا جميعًا فليحملها الخدم الى غرف الضيوف

الفصل التاسع

ما كان اوربون ليخشى باولين لولا جريمة ارتكبها تلك الليلة فانت قذىً في عينهِ وشجى في حلقهِ حتى اذا ما رآها تعتني بالفارسية وسمعها تتهمهُ بمحاولة قتلها علم انها كانت في القاعة ساعة كان في دار التحف وظنَّ انها رأتهُ متلبسًا بجرمهِ فمضى يتبكيت الضمير وهجرهُ النوم وطاب الانفراد وتجلَّت لهُ فعلتهُ بامبع الالوان واقبح الصور فعلم انهُ في قبضتها وعجب لنفسهِ كيف اقدم على عملهِ هذا فخاطر بشرفهِ وهو عميد القوم وابن واليهم . وتحرير الخبر ان اوربون قضى سهرتهُ في بيت كاترينا حيث لقي عمها فحدثهُ بحديث القطيف الذي ابتاعهُ ابوهُ هدية للكنيسة ووصف لهُ جمالهُ وما فيهِ من الجواهر النادرة المثال حتى اتى الى الزمردة فاطنب في صفاء مائها وكبر حجمها وغلاء قيمتها فلما فرغ من الكلام قال الآخر

— او يأبى عليك ابوك ان تأخذ شيئًا من جواهر هذا القطيف وانت ولدهُ وفلذة كبدهِ او نسي ان الكنيسة في غنى عن هذه الجواهر وخزائنها تتدفق بالثروة فقد حقَّ لك ان تأخذ نصيبك منها فتهديهُ الى عروسك فالنساء يطمعن في الحلي ويرين فيها من اللذة مالا نشعر بهِ نحن . ولما جلسوا الى الطعام استرسل الرجل في حديثهِ هذا فزاد اوربون شوقًا الى احراز الزمردة التي في القطيف فصمد ارسالها الى نسيبة يوستينوس في القسطنطنية قيامًا بوعدهِ لها ومقابل هدايا اهدتها اليهِ كالخيل التي جاء بها فلما عاد الى البيت سار توًّا الى دار التحف ففتحها وعمد الى القطيف فنزع منهُ الزمردة وقلبهُ يخفق وجلاً لان ذلك كان اول عهدهِ بالسرقة

فلما حدث ما حدث مما ذكرناهُ آنفًا تبدَّلت ظنونهُ وازداد قلقهُ فقضى بقية ليلهِ يتقلب على احرّ من الجمر ورأى في باولين عدوًّا لهُ لا بدَّ من مناجزتهِ او التسليم اليهِ . وادرك انها ليست ممن تنطلي عليهم الحيل وظنَّ انها تنوي الايقاع بهِ وتشهيرهُ بعد ان اتهمتهُ بمحاولة قتل الفارسية وظل على تلك الحال نحو ساعتين ثم هبَّ من اضطرابهِ وقال اذا شاءت الخصام فانا كفؤها . نعم ان نسيبة يوستينوس جميلة بهية كملاك وقد اقترفتُ جرمًا كبيرًا لاجلها وارتكبتُ وزرًا لا يغتفر ولكن ما الحيلة الآن وقد كاد الامر ينكشف فلا بدَّ من الثبات . ثم امر قهرمان

يتهم وقائد الحرس ان يقتفيا آثار صاحب الحذاء حتى يقفا عليهِ وعمد الى اسادهِ فخطّ ابياتاً من الشعر لفتاة القسطنطينية ثم لفّ الزمرّدة وشدها الى الرسالة وارسل فاستدعى السائس الذي اتى بخيلهِ من عاصمة الروم الى منف فامرهُ بالاستعداد للسفر ودفع اليهِ الهدية واوصاهُ ان يسير توًّا الى الاسكندرية ويركب اول سفينة وجهتها القسطنطينية ثم رافقهُ الى خارج المدينة وهو يعيد عليهِ اوامرهُ بسرعة المسير وكتمان الامر. وبعد ان سار بضعة اميال عاد الى البيت وقد اطمأنّ فؤادهُ وخفّ جزعهُ اذ اقصى عنهُ الشاهد على سرقتهِ لكنهُ ودّ لو تنقص حياتهُ سنة وانهُ لم يرتكب هذه السرقة على انهُ لم يكد يستقرّ في مخدعهِ حتى عاودتهُ مخاوفهُ وتضاعف قلقهُ فاخذ يفكّر في باولين وما ابدتهُ من مظاهر العداء لهُ وحار في تعليل الاسباب التي دفعتها الى عملها هذا واتهامها اياهُ بالقتل في حين انهُ لم يقترف ذنباً يمسُّها وعجز عن الوقوف على علّة نفورها منهُ بعد ان باحت عيناها بحبها لهُ ليلة كانا يروّحان النفس في السفينة مع ابويهِ فقال في نفسهِ لعلّ الباعث الى ذلك غيرتها من كاترينا ولما خطر ببالهِ هذا الخاطر شرع يقابل بين الاثنتين تلك في جمالها وشممها وسموّ عواطفها وشرف نسبها وهذه في قصر قامتها وخفتها وثروتها تلك الثروة التي اشتهتها امُّهُ على ما كان لها ولابيهِ من الاموال التي لا تقع تحت حصر

ولبث ساعة كذلك تتنازعهُ الافكار حتى اعيا فارتمى على سريرهِ وران الكرى على اجفانهِ فرأى رؤيا تمثلت فيها باولين على عرش من الماء الازرق مفروش بالورود واصوات الغناء تتصاعد حولها فتقدم اليها واذا بنسر اسود كبير انقضّ عليهِ ولطم وجههُ بجناحيهِ حتى كاد يعميهِ ثم تحوّل الى الورود فاخذ ينقرها كما تنقر الفراخ حبوب الحنطة فغاظهُ ذلك وعمد الى النسر يريد القبض عليهِ فلم يستطع المشي وكأن قدميهِ مشدودتان الى الارض فحاول الركض وهو يضرب بيديهِ ذات اليمين وذات الشمال وبينما هو كذلك استيقظ وجبينهُ يكاد يتفصّد عرقاً فلما فتح عينيهِ رأى امهُ واقفة بجانبهِ وقد علا وجهها الاصفرار فاخبرتهُ ان اباهُ بانتظارهِ في المجلس وانهُ في حاجةٍ اليهِ فنهض من سريرهِ واصلح شعرهُ وهو يفكر فيما عسى ان يكون الغرض من تلك الدعوة ولما فرغ خرج من غرفتهِ يريد الذهاب فاستوقفتهُ شدة الحرّ في الدار والحديقة وقد صرّ الجندب واشتدّ الهجير وامتلأ الجو بوهج الشمس المنعكس عن سطح الارض وكأنّ جميع المخلوقات استسلمت لفعل الحرّ حتى خيل لهُ ان الماء في النوفرة بطيء الجريان فزاد ذلك في كدرهِ وغمهِ وشعر كأنّ ثقلاً ألقي على صدرهِ وكأنّ رجليهِ مقيدتان ويديهِ مكبلتان فسار الهوينا حتى بلغ المجلس فابصر فيهِ ما راعهُ وزاد في اضطرابهِ اذ رأى امام سرير ابيهِ القطيف الفارسيّ منشوراً بعضهُ وبجانبهِ امهُ وهاشم التاجر العربي فحيّا والدهُ والحاضرين ثم نظر اليهم وقال

ما بالكم صامتين كأنّ على رؤوسكم الطير . ان المصيبة شديدة الوطأة وقد احزنني ما ألمّ بتلك الفتاة التعيسة واغضبني ما اصاب رستم شيخ القافلة فأيقن ايها التاجر ان القصاص سيحلّ بالمجرمين فيلقون جزاء ما جنتهُ ايديهم وسيخولك ابي حق الاقتصاص منهم كما تشاء ولا تخشَ بأساً على رستم فان فيلبس الطبيب يداويهِ ويشفيهِ باذن الله وما ذلك على مهارتهِ بكثير وهو ابقراط مصر وطبيبها النطاسي اما التعويض فانت أدرى بأبي ولا أراني في حاجة الى الاسهاب. فهبّت النخوة العربية في صدر هاشم والتفت اليهِ مغضباً وقال

— مَهْ ولا تجمع بين شرين اهانتي والجراح التي اصابت صديقي الباسل تحت سقف بيتكم فلست بائعاً حقي بمال ولو مال المقوقس ولن اتحوّل عن طلب التقمة وقصاص القتلة اللئام فقد جاء في كتابنا ان القتل انفى للقتل وان في القصاص حياة واراكم تجرون على هذه القاعدة ولو ان كتبكم تقول غير هذا القول . ويسوؤني ان امثال هذه الحوادث تحدث في بيت الرجل الذي استعملهُ الخليفة على نصارى مصر فقد سمعتكم تفاخرون برحابة صدركم وعدم تعصبكم فما قولك في ما فعلتموهُ برجل نزل عليكم فقتلتموهُ ايام السلم وهبهُ نجا من الموت فسيبقى معتوهاً طول عمرهِ واما امانتكم . . . . .

اوريون — ومن يجرأ على الارتياب فيها

هاشم — انا يا فتى فقد بعتكم امس شيئاً واراهُ اليوم عطلاً من اثمن جواهرهِ وحينئذٍ التفتت امهُ اليهِ وقالت لقد اقتلعوا الزمردة النفيسة من القطيف في الليلة البارحة بعد ان سرت بنفسك مع الخدم الذين حملوهُ الى دار التحف حيث اودعتموهُ . فقال اوريون

— نعم فقد كان الامر كذلك ونحن نقلناهُ في نفس الثوب الذي لفهُ بهِ اتباع التاجر ورافقنا سبك قهرمان بيتنا فمن الذي جاء بالقطيف اليوم منهُ

هاشم — لحسن الحظ ان جاءت بهِ امك وسبك وحملهُ عبيدكم

اوريون — وعلامَ لم يتركوهُ وشأنهُ

هاشم — ذلك لاني قلت لابيك ان جمالهُ لا يبدو على اتمهِ الاَّ في النهار في نور الشمس . وقالت امهُ وزد على ذلك فان اباك رام ان يعيد النظر في ما ابتاعهُ واراد ان يسأل التاجر عن خير الوسائل لاقتلاع حجارتهِ الكريمة منهُ دون ان يمسهُ بسوء فذهبتُ وسبك بالصيد الى دار التحف واتينا بهِ

اوريون — وكيف دخلتما الدار ومفتاحها معي

امهُ — وجدنا الباب مفتوحاً

اوريون — ولكني اقفلتهُ بحضور سبك

سبك — نعم وقد سمعت باذني رنة القفل . فقالت امهُ بقي اذًا انهم فتحوا الابواب النحاسية بمفتاح آخر فاننا حالما دخلنا الفينا القطيف منشورًا نتأملناهُ فاذا الزمردة منزوعة من مكانها . فاصفرَّ اوريون وصاح يا للعار وقال المقوقس

— اقسم بالسيد المسيح اني لا اغفل ولا استريح ولا انفك انقب عن الجاني حتى القي القبض عليهِ . فقال هاشم

— وانا اشاركك في البحث ولو دعت الحال الى رفع الامر الى عمرو بن العاص فقد بدرت كلمة الآن لن انساها وقد ادركت يا فتى مغزى كلامك وما يدور في خلدك فقد حدثتك نفسك ان هاشمًا خبٌّ مكَّار باع اباك في ما باعهُ زمردة كاذبة فلما خيم الظلام ارسل من يسرقها تحت جنح الليل قبل ان يطلع النهار وتنكشف الحيلة فاعملوا يا قوم انني رجل امين واموالي بفضل الله كثيرة فاذا تجرأ احد ان يثلم شرفي وصيتي فليعلم ان لهذا الشيخ الفاني من الاخوان الذين يأخذون بناصره و يشدون ازرهُ من لا قبَل لكم بمناجزتهِ . ولما انتهى الى هذا الموقف اغرورقت عيناهُ بدموع الغمِّ والكدر فقاطعهُ اوريون وقال

— ومن الذي تجرأ فاتهمك بمثل ما تقول . فقال

— امك ولو لم تقل ذلك صريحًا . فقال المقوقس

— عفوًا ايها التاجر ولا يثر ثائر غيظك فقلوب النساء ارقُّ من قلوب الرجال لكنهنَّ اقرب منهم الى سوء الظن لا سيما بالخارجين عن عقيدتهم فقد قيل ان شعر المرأة طويل وعقلها قصير . فاجابت تفورس

— قولوا في النساء ما شئتم اذا كان ذلك يبرّد غليلكم على اني اعترف بخطائي واستميحك العفو ايها التاجر

— على الرحب والسعة فقد قضيت ما مضى من العمر ولا غبار على اسمي وصيتي فلا غرو اذا لم اطق ذلك الآن على اني سأنف وقتي على البحث عن هذا الامر فلا احيد يمنة ولا يسرة حتى يبدي الصريح عن الرغوة فقولوا لي أكان الكلب القائم على حراسة دار التحف عقورًا . فاجاب اوريون

— يكفيك من ذلك ما فعلهُ بالجارية الفارسية . وقالت امهُ

— لقد كنتُ اول الواصلين الى مكان الواقعة ولو كان السارق اجنبيًّا لما تركهُ الكلب وشأنهُ فهو اذًا من البيت او من الخدم ولا يحتمل ان يكون باولين التي سبقت الجميع الى اغاثة

ماندافي فانها . . . . فقاطعها زوجها وقال منشهرًا

— تجاوزي عن اسم باولين في هذا الحديث . فقال هاشم

— او تعنون الفتاة التي كانت معكم امس اذًا اموالي حرام عليَّ ان كانت هي السارق ومن كان مثلها فابعد الاشياء عنهُ ارتكاب الخيانة . وقال اوريون ومن يصدق ذلك عن باولين فصاحت امهُ

— عجبًا للرجال تفتنهم عين نجلاء وتسلب البابهم ولكني لم اتهمها فاسمعوا ما اقول واعلموا انَّ ذات الشعر الطويل قد تكون ذات عقل كبير ايضًا فقد وجدوا حذاء رجل في القاعة فهل صدعت بامر مولاك يا سبك وهل اوعزت اليهم ان يتحققوا صاحب الحذاء

— نعم يا مولاتي واني انتظر الساعة قدوم قائد الحرس الذي كلفتهُ قضاء الامر ولم يكد يفرغ من عبارتهِ هذه حتى طلع عليهم القائد المذكور فاخبرهم بما فعلهُ قال طرحنا الحذاء امام كلاب الصيد حتى شمتهُ ثم اطلقناها فجرى اثنان منها الى الباب المؤدي الى غرف النوم وتسلق السلَّم الى غرفة السيدة باولين ثم عادت الكلاب بامرها الى الاصطبل فدارت في انحائهِ وهي تهرُّ هريرًا شديدًا وكأنها الشياطين تجري لتقبض نفوس الهالكين ولم تلبث ان هجمت على الفتى ابن حيرام مربي الخيل الذي جاء من دمشق مع ابنة توما العظيم فالقتهُ على الارض ثم اندفعت الى غرفة ابيهِ فقلبت الامتعة وبعثرتها حتى لم يبقَ عندنا ريب ان صاحب الحذاء هو حيرام بعينهِ وقد التفت الكلاب اثرهُ الى ضفة النيل ووقفت هناك وبعد البحث تبين لنا ان احد القوارب ناقص وعندي ان الرجل عبر النهر الى العدوة الشرقية فاذا لم يجرهُ العرب شيئًا لنا القبض عليهِ قبل ان ينجو . فصاح اوريون

— لقد عرفنا السارق وانت ايها القائد تخذ بعض رجالك واعبر بهم النهر والقِ القبض عليهِ وسيعطيك ابي امرًا قاضيًا بذلك فيساعدك العرب على اسرهِ فاذا ظفرت بهِ اليوم فقد يحدث ان تكون الزمردة في قبضتهِ

وفيما هم كذلك دخل الحاجب فاخبر المقوقس ان غمالائيل الصيرفي اليهودي بالباب يلتمس صدور الاذن في المثول بالحضرة ليطلعهم على امور ذات بال بشأن الزمردة . فامتقع لون اوريون وحوَّل وجههُ عن التاجر وانزاح من مكانهِ فلما صار غمالائيل في حضرة المقوقس سئل عما يعرفهُ من امر الزمردة فقال

جاءني صباح اليوم الرجل حيرام من خدم هذا البيت وبيده زمردة كبيرة كويبة فعرضها عليَّ للبيع واقسم لي انها اتصلت اليهِ من تركة القائد توما وان سيدهُ اتخذها ايام سؤدده

وعزه حلية في رأس جواده فرضيت ان ابتاع الجوهرة وعرضت عليه ثمناً مليحاً نقدتهُ منهُ الفي درهم معجلة كان في حاجة شديدة اليها وخلى الباقي وديعة عندي ولما انفصل عني تنازعتني الافكار ولم اعتم ان رأيت رجال الشرطة يجرون بكلابهم في الشوارع وقد علت الجلبة والضوضاء فسألت عن الخبر فقيل لي انهم يبحثون عن رجل سرق شيئاً من بيت الوالي فعلمت اني مخدوع واني عقدت صفقة خاسرة فاسرعت الى القصر واثقاً بعدل المقوقس وهانذا اتنازل عن هذا الحجر الكريم مقابل ما نقدت حيرام ولا اطلب منكم فائدة لمالي ولا ابتغي اجراً ولا جعلاً مقابل حفظي هذه الوديعة الثمينة في يدي ساعتين او اكثر. فلم يرُق مزاحهُ البارد في عين هاشم فقال لهُ هات الزمردة ومدَّ يدهُ فانتزعها منهُ وشرع يقلبها في يديهِ ويحدق فيها النظر ثم اخرج من جيبهِ مطرقة صغيرة فدقها بها وهو يفحصها فحص خبير بانواع الحجارة الكريمة حتى اكتفى. هذا واوريون كمن في النزع تارة يصفرُّ وطوراً يحمرُّ اذ خشي ان يكون رسولهُ الى الاسكندرية قد باع الزمردة الى حيرام وهذا باعها الى اليهودي ولمَّا اعياهُ الامر التفت الى غالائيل وقال

اواثق انت ان حيرام باعك الزمردة وهل تعرف الرجل معرفة تامة فان المسألة شديدة الاهمية وعقابهُ او براءتهُ من التهمة يتعلقان على كلامك

فقال اليهودي ليبارك اسم الرب اترتاب يا مولاي في صدق قولي او بقي في منف اليوم من يجهل حيرام ولا يعرف تمتتهُ فكم من مرة رأيناهُ يعود بخيلك السراع كأنهُ ملاك الموت فيدوس الشيوخ والاطفال. فقال اوريون

— اتذكر اية ساعة اتاك اليوم

— اتاني بعد صلاة الصبح بقليل ساعة يقع نور الشمس على الدكة امام بيتي

— وفي اية ساعات النهار يكون ذلك

— لساعتين بعد الشروق في هذه الايام

فسرّي عن اوريون وذلك لان رسولهُ الذي سار بالزمردة الى الاسكندرية انفصل عن منف بعد شروق الشمس باربع ساعات ولما كان شديد الثقة بصدق اليهودي اطمأنَّ بالهُ لكنهُ ما برح يظن الزمردة عين التي ارسلها وتمنى ان لا يقبض الشرطة على حيرام الى ان قال في نفسهِ وهب انهم فعلوا فشرفي اثمن من حياة مئة سائس فاذا اقتضى الامر ضحيت صيتهُ فديةً عني وحقنت دمهُ بمالي من النفوذ عند ابي ثم التفت الى هاشم فقال

— اتأذن لي في فحص الزمردة فقد اعياني امرها فهل تظن ان في الوجود زمردة اخرى تماثلها

فقال هاشم هذا امر يصعب الجزم بهِ فان هذا الحجر اشبه بالذي كان في القطيف من الماء بالماء لولا نتوء في احد جوانبهِ لا اذكر انني رأيتهُ في ذاك وقد يحدث ان هذا النتوء كان مختفياً في الذهب المحيط بهِ ولكن قل يا جوهري أكانت الزمردة كما هي الآن لما اشتريتها من السارق

— نعم كانت عارية كآدم وحواء قبل ان اكلا من الثمرة المنهيّ عنها. فقال التاجر

— يا للحيرة فقلبي يحدثني ان هذه ليست تلك وتكاد عيني تقنعني انها هي لولا ان في هذه طولاً يزيد عن طول تلك فقال اوربون

— أوَ يصدَّق ان هذين التوأمين وجدا في ساعة واحدة وفي بيت واحد فلم يبقَ اذاً الاَّ ان هذه هي زمردة القطيف عينها وقد سرَّني اننا ظفرنا بها بعد ضياعها وسأحرص عليها الآن فاضعها في خزانة الحديد ومتى قبضتم على السارق فادعني ايها القائد للنظر في امره . ثم حيا والدبهِ وهاشماً وخرج وهكذا اتضحت براءة التاجر لكنهُ ظلَّ مضطرب البال وكأن في قلبهِ ريباً لم يستطع محوهُ فلما احدث الجماعة تفرق نهض هو ايضاً وترك المجلس وعاد من حيث اتى

بحيرة طبرية وواقعة حطّين

احسنُ ما فيهِ يسرح النظرُ ... وادٍ بحيثُ الأُردنُّ ينفجرُ
غارت عليهِ النجودُ من شغَفٍ ... فالغور ما بينهنَّ منحصرُ
قامتْ على الجانبين تحفرهُ ... كذلك الحسن شأنهُ الخفرُ
مبتدئُ الجري في الشمال لدى ... شيخٍ لهُ الكبرُ بات والكبرُ
هاوٍ الى الموت في الجنوب لدى ... بحرٍ ولا كالبحار يُحتضرُ
ومن يعمُّ البياض لمَّتهُ ... فهل سوى الموت بات ينتظرُ
يا شرقَ هونين كم لديك جرى ... معينُ ماءٍ حصباؤهُ دُرَرُ
الشطرُ تلُّ القاضي يسلسلهُ ... والشطرُ من بانياسَ ينحدرُ
والحاصبانيُّ بات إثرَهما ... يشتدُّ في الجري ليس يصطبرُ
يملأُ منها الاردنُّ بركتهُ ... ويزدهي مرجُ حولةَ الخضرُ
حيث وشيجُ اليراعِ مشتبكٌ ... كانما الخطُّ ثمَّ والسمرُ
حيث نموُّ النبات معجزةٌ ... كانما سوق قمحهِ الشجرُ